Thus, Spoke Cafour: Reading of Al- Sawad Book

***Roqaya Hijazi* ***

ABSTRACT

"The Book of Al Sawad" is the part that Adonis has devoted to Cafour in his famous trilogy: "The Book: Yesterday Place Now, after reviewing Sayf Al Dawla's papers, and the papers of Khawla, to complete the biography of Al Mutanabbi in the book. The recipient's memory has two images for Cafour, paradoxically, two contradictory, the first positive historical witnessed by what was said in the history books, and a satirical poetic picture, Al-Mutanabbi drew it and defined its features, who made his praises in Cafour apparently and inwardly, and what settled in the Arab imagination is the blacks and the black. The researcher in this study seeks to clarify the features of the image that Adonis tried to paint for Cafour in Al Sawad Book, and made it a contrast to that which was mentioned in the history books. Through confessions in which Adonis revealed the most important attitudes in the life of Cafour, and showed his most prominent characteristics, and lifted the veil on the controversial relationship between him and Al-Mutanabbi, which referred praise to stare. The researcher examined the study through a contextual, analytical approach that sees the text in its relations with what is around it and with the world that established it.

Keywords: The Book; Cafour; Al-Mutanabbi; Image; Al- Sawad Book.

* Zayed University.

Received on 21/7/2020 and Accepted for Publication on 10/2/2021.

هكذا تكلّم كافور: قراءة في كتاب السّواد

رقية حجازي *

ملخص

"كتابُ السّواد" هو الجزء الّذي خصّصَهُ أدونيس لكافور في ثلاثيته الشّهيرَة:" الكتاب: أمس المكان الآن، بعدَ أن استعرَضَ أوراقَ سيفِ الدّولةِ، وأوراقَ خولة؛ ليكمل بذلك سيرَةَ المتنبّي في الكتاب. ولكافور في ذاكرةِ المتلقّي صورَتان هما، للمفارقةِ، متناقضَتانِ: الأولى تاريخيّة إيجابيّة شاهِدُها ما قيل فيه في كتبِ التّاريخ، والثّانية شعريّة ساخِرَة، رسَمَها وحدّدَ ملامِحَها عاملان: المتنبّي الّذي جعل لمدائحِهِ في كافور ظاهرًا وباطنا، وما اسْتقرَّ في المتخيَّل العربيّ عن السّودِ والسّواد. وتسعى الباحثة في هذهِ الدّراسَة إلى الإبانَة عن ملامِحِ الصّورةِ التّي حاولَ أدونيس أنْ يرسُمَها لكافور في كتاب السّواد، وجعلَها تباينُ تلكَ الّتي وردت في كتبِ التّاريخِ. من خلالِ اعترافاتٍ كشَفَ فيها أدونيس عنْ أهمّ المواقفِ في حياة كافور، وبيّنَ أبرزَ صِفاتِه، ورفعَ الحجابَ عن العلاقة المثيرَة للجدل بينه وبينَ المتنبّي، التي أحالتِ الْمَدْحَ هِجاءً. وقد تناولَتِ الباحثةُ الدّراسَةَ من خلالِ منهجٍ سياقيّ تحليليّ يرى النصّ في علاقاتِهِ بما حولَهُ، وبالعالمِ الذي أنشأه.

الكلمات الدالة: الكتاب، كافور، المتنبّي.

المقدمة

مِنَ الصَّعْبِ أَنْ تُذكرَ الْحَداثَة الْعَرَبِيَّة، وَتَحْضُرَ رُموزُها، وَالْحاضِرونَ كُثُر، دونَ أَنْ يُذْكَرَ أَدونيس الّذي يَقِفُ في بُؤْرَةِ الْمَشْروعِ، وَيَتَصَدَّرُ مَشْهَدَهُ، في حَداثَةٍ سِمَتُها الْفَرْقُ، وَميزَتُها في السُّؤالِ عَلى السُّؤالِ. شاعرٌ رأى أَنَّ قَضِيَّةَ الشِّعْرِ الْحَقيقِيَّة لَيْسَتْ فيما تَقولُ النَّظَرِيَّةُ، بَلْ فيما تَقولُ الْقَصيدَةُ (أدونيس،1978)، وَرَأى الشِّعْرَ كَشْفًا لا اسْتِعادَةً، وَمِنْ هُنا عاشَ مُخْتَلِفَ ضُروبِ التَّجْريبِ، حَتّى غَدا كَما وَصَفَ نَفْسَهُ: "تِلْميذَ التَّجْرِبَةِ الإِنْسانِيَّةِ كُلِّها" (أدونيس،1978).

أدونيس شاعِرٌ لا تَكادُ قَصيدَتُهُ تَسْكُنُ في شَكْلٍ، فَالشَّكْلُ في عُرْفِهِ حَدّ، "وَكُلُّ شَكْلٍ نَقْص" (أدونيس،1978)، وَقيمَةُ الْقَصيدَةِ عِنْدَهُ تكونُ بَقَدْرِ ابْتِعادِها عَنِ الإِلْفِ وَالْعادَةِ، وَسيماءِ الشِّعْرِ الْمَعْروفِ. يَتَنَقَّلُ بوَعْيٍ النَّاقِدِ بَيْنَ مُقارَباتٍ شَتّى، وَيَسْعى بِحَدْسِ الشّاعِرِ إِلى الْكِتابَةِ / الاخْتِلافِ. نَخْتَلفُ فيهِ، غَيْرَ أَنّنا لا نَسْتَطيعُ أَنْ نُنْكِرَ أَثَرَهُ، وَلَيْسَ بِناقِصِهِ حَظّهُ مِنَ التَّأْثيرِ أَنَّهُ يُخَلْخِلُ الثَّوابِتَ، وَيَدْعو إِلى كِتابَةٍ مُخْتَلِفَةٍ شِعارُها الْمَجازُ، بلْ ما وراء الْمَجاز (ضاهر، 2000)، يقودُهُ إِلَيْهِ دليلانِ من فلْسَفةٍ وأدب.

تتناولُ هذِهِ الدّراسَةُ "كتابَ السّوادِ" الواقِعِ في الجزء الأخير منْ ثلاثِيَّةِ أدونيس: "الكتابِ: أمْس المكان الآن"، هذه الثّلاثيّة التي تمثّلُ في رأي الباحثةِ الذُّروةَ في تجربَةِ أدونيس الشّعريّة؛ لأنّها تحملُ معظمَ سماتِها: تجاور الأجناس الأدبيّة، وتداخل الأزمنةِ، وتمازج الأصواتِ. ممّا يضع الباحثَ أو المتلقّي في مواجهةِ أسئلةٍ ليسَ أيسَرُها السؤال حولَ تداخُلِ ما بينَ الشّعرِ والنّثْر، ونقاء النّوعِ الأدبيّ في ظلّ تجربةٍ شعريّةٍ فريدة عصفتْ بالأجناسِ الأدبيّةِ كلّها.

أسماه أدونيس الكتاب، والكتابُ في ذاكرَتِنا العربيّةِ كتابانِ: الكتابُ السّماويُّ، وكِتابُ سيبَويْه: الأوّلُ مُعجِز ربّانيّ يجِلُّ عن كلّ مقارنَة، والثّاني مُنْجَزُ فارسيّ أسّسَ للنّحوِ العربيّ، حتّى صار عَلَمًا عند أهلِه. فهلْ أرادَ أدونيس أن يكونَ كتابه الخاتمةَ الجامعةَ لمسيرته المثيرة للجدلِ على جانبيّ الشّعر والنّقد؟ هلْ ضاقتِ القصيدَةُ عمّا رأى واتّسَعَ الكتابُ؟ هل كانَ الكتابُ ردَّ الشّاعِر في أدونيس على النّاقد، حتّى سعى إلى كتابةِ نصٍّ شعريّ كانَ وصَفَهُ ذاتَ زمانٍ فقال: تتّجهُ القصيدةُ العربيّةُ لأنْ تصبحَ القصيدة الكليّة، التي تتداخلُ فيها الأنواعُ التّعبيريّةُ نثرًا ووزنا، بثًّا وحوارا، غناء وملحمة وقصّة، تتعانق فيها حدوسُ الفلسفةِ والعلمِ والتاريخ (أدونيس، 1979)؟

الكتابُ رحلةٌ في التّاريخِ عبْرَ المتنبّي، ومحاولة لمسرحة التاريخ العربيّ: سياسة، وثقافة، ونظرة إلى الإنسان. يقوم جزؤُهُ الأوّلُ على المتنبّي الشّاعر المرتبط بعصْرِهِ وقضاياه، وتناقضاته السّياسيّة والشّعريّة، أما الجزءُ الثّاني فيعرِضُ للحرب مع الرّوم، والعلاقةِ

* جامعة زايد. تاريخ استلام البحث 2020/7/21، وتاريخ قبوله 2021/2/10.

 ©2022 عمادة البحث العلمي/ الجامعة الأردنية. جميع الحقوق محفوظة.

مع الآخر، وإشكاليّة المدينة العربيّة، في حين جاء الجزءُ الثّالثُ تحتَ عُنوانِ الأُفول، ويتمثّل ذلك في موتِ المتنبّي، وانهيار الحضارة العربيّة (بيضون، 1998).

وليس اسْتحضار المتنبّي جديدًا على الشّعرِ العربيّ الحديث، فقدْ أطلَّ كثير من الشعراءِ على اسمِ المتنبّي، كلٌّ من شرْفَتِهِ كما قالَ درويش (درويش، 2001)، بتضمينِ بيتٍ أو شطرِ بيتٍ من أبياته ليكونَ عنصرًا في صورةٍ جزئيّة من قصيدة، في حين جعلَهُ آخرُ محورًا لقصيدةٍ أو كتابٍ، واختارَ ثالثٌ أن يكونَ عنوانَ مرحلةٍ، أو معادلًا تراثيًّا في تجربَة شعريّة، أو عتبّةً نصّيّة (زين الدّين، 1999). وكان الاختلاف في الصّورةِ المتناقضة الّتي قدّمتها تلك القصائد للمتنبّي، فقد أعلى بعضها من شأنِ الشّاعرِ، لأنّهُ مثّل روحًا متمرّدة تسعى إلى الحرية، في حين حطّ آخرون من شأنِهِ بحجّة أنه شاعر مدحٍ إنْ أعطيَ رضيَ، وإنْ مُنِعَ سَخِط (الأسطة، 2009).

وقد اتّكأ أدونيس في الكتابِ على المتنبّي في منجزٍ شعْريّ مهولٍ مخوف؛ ليكشف عن المتنبّي قناعَه، ويهيئ المتلقّي لقراءة جديدة للتاريخ، فيها يقول التّاريخ، ويقولُ المتنبّي، وينوّعُ أدونيس على كليهما في قراءة استعاديّة استرجاعيّة لذلك الجانب المعتم من التاريخ، وللحدث المسكوتِ عنه فيه. يتجوّل أدونيس في طرقاتِ التّاريخِ، ويقتحمُ جحيمَه، ويلامسُ جمرَهُ، ويذوقُ عذاباتِه، ويأبى التاريخ في بعض المشاهد أنْ ينحاز للشّعر، وقد يترفّع الشعرُ عن أن يحملَ التاريخ فيترك ادونيس الأمر للسّرد، والرواية للتاريخ بمباشرَتِها أو بلاغَتها، ويعيشُ صدمة ما حدث أمس، ودهْشَة ما يحدث اليوم، فالأمسُ يحكمُ اليوم، والغدُ حاملٌ تبِعات ما يحدث الآن!

والكِتابُ بنية نصيّة بديعة، تنتقلُ بالسّرْد بين نثْر وشعر، وبالشخوص بين ذات وآخر، وبالزمان بين ماض وحاضر. بنية تقوم على لقطات مبعْثرة، بل فوضى متقطّعة، وتأملات شاعريّة شاردة، تبدو في بعض أجزائها شواطئ اطمئنان في قلبِ الكوابيس على حدّ وصفِ باشلار Gaston Bachelard (باشلار، 1991).

وقد استعانَتِ الباحثَةُ بعدد من الدّراسات الّتي تناولَتِ الكتابَ في جزءٍ من أجزائِهِ، تذكرُ منها: أسيمة درويش في: تحرير المعنى: دراسة في كتاب الكتاب لأدونيس، ومسار التحوّلات: قراءة في شعر أدونيس، وزهيدة جبّور في: التّاريخ والتّجربة في الكتاب، وزين الدين ثائر في: أبو الطيّب المتنبّي في الشعر المعاصر، وعبدالله هيف في: قناع المتنبّي في الشعر العربيّ الحديث، وعادل ضاهر في الشعر والوجود: دراسة في شعر أدونيس، وسواها. وقد اختلفت مداخل الدّراسات الّتي تناولتِ الكتابَ وتنوّعت، فبحث دارسٌ فيها عن صورة المتنبّي، ورآه الآخر قناعًا، وقرأه آخرُ قراءة تأويليّة، تتبّعَ دارسٌ الجانبَ التّاريخيّ، ونحى آخرُ منحىً فلسفيًّا، اهتمّت دراسة بالجانبِ اللّغويّ ومالتْ ثانية إلى الرّمزِ والأسطورة. ومنْ هنا تأخذ هذه الدراسَة بعض خصوصيّتها، فهي تتناولُ صفحات مرَّ بها نقّاد كتابِ أدونيس مرورًا عابرًا، وتجعلُ كافورًا في منطقةِ الضّوء، وترى المتنبّي في ظلالِهِ، ومن خلالِه.

تَداخَلَتِ الأَجْناسُ الأَدَبِيَّةُ في الكتابِ، فَاخْتَلَطَتِ الْمَناهِجُ عَلى الْدّارِسِ، لَبَسَ أدونيسُ عَلى الْقارِئِ الشَّكْلَ فَالْتَبَسَ النصُّ على النّاقِدِ، حتّى وقفتِ الْباحِثَةُ أَمامَ تَجْرِبَةٍ كَهذِهِ حائِرَةً في الْمَنْهَجِ الّذي يُمْكِنُ أَنْ تَلْتَزِمَهُ لِتدْخُلَ عالَمَ الكتابِ الشِّعْرِيَّ. فَفي هذه التَّجْرِبَةِ الشِّعْرِيَّةِ لا تسْتَطيعُ الباحثة أَنْ تأخذَ بِمَقولَةِ "مَوْتِ الْمُؤَلِّفِ"، وَكَيْفَ تفْعلُ وَالْقائِلُ أَدونيس؟ كَما لا يُمْكِنُها أَنْ تُغْلِقَ الْبِنْيَةَ عَلى النّصّ، وما منْ سَبيلٍ إلى أَنْ تُسْلِمَ النَّصَّ إلى قِراءَةٍ نقديّةٍ لا تشيرُ إلى أَيَّةِ قِراءَة سابِقَة.

كَيْفَ إذنْ تتَعامَلُ الباحِثة مَعَ نَصٍّ مَفاتيحُهُ مَصادِرُهُ عَلى اخْتِلافِ أَلْوانِها، وَتَباعُدِ ما بَيْنها؟ هذا هو هاجِسُ الْقارِئِ لِكِتابِ أدونيس، فَكُلُّ ما في الْكِتابِ يَكادُ يُحيلُ إلى خارِجٍ؛ لِذلكَ ارْتَأَتِ الباحثةُ أَنْ تسْتَعينَ عَلى تَجْرِبَةِ الْكِتابِ الشِّعْرِيَّةِ بِالمُراوَحَةِ بَيْنَ داخِلِ النَّصِّ وَخارِجِهِ، في قِراءَةٍ جُوّانِيَّة/ بَرّانِيَّة، تحاولُ أن تقاربَ التَّجْرِبَةَ على ضوءِ منهجٍ سياقيّ تحليليّ، يرى النّصّ في علاقَتِهِ بِالْعالَمِ الّذي أنتَجَهُ، فَالنّصُّ لا يُمْكِنُ أَنْ يُفْهَمَ مُنْعَزِلًا عَنْ مَصادِرِهِ، وَإِنَّما يُفْهَمُ في ضَوْءِ أَسْبابِهِ، وَنَتائِجِهِ، وَعلاقاتِهِ.

توطئة

بنى أدونيس الكتابَ بناءً دائريًّا، فقارئ الكتاب لا يصعدُ سلّمًا، بلْ يهبطُ دوائرَ، ولا يسيرُ بالحكايَة من قدمها إلى رأسِها، بل يهبط في أنفاقٍ، ويلجُ مخابئ (بيضون، 1998). وقدْ جاء الجزء الثّالث من الكتابِ في سبعة هوامش معظمها تحت عنوان: يوميّات المتنبّي، وقد أعطى أدونيس كلّ هامش عنوانًا من كلِمة واحدة في استعراض لغةٍ، وغريبِ مفردات مثالُها: ديجور، رَصَد، غَوْر، وتحتَ كلّ منها عناوين أخرى منْ كلماتٍ مفردات من مثلِ: هباء، تجويف، انطفاء، وتلا ذلك كلّه خاتمة تحتها عنوانان: كتاب السّواد، ورماد المتنبّي. وتحتَ العنوانِ الأخير تقرأ: الغيْهَب، وشرق بلا غرْب، والشّاعر.

أمّا كتاب السّواد، فهو القِسْم الأوّلُ من خاتِمة الجزءِ الثّالثِ والأخير من الكتاب، وقدْ قدّمَ له أدونيس بقوْلِهِ: "أوراق خاصّة أوصى كافور أنْ تُنْشَرَ بَعدَ موتِهِ، وقد وصلَتْ إلى أدونيس بطريقةٍ غامضة، وفي صندوقٍ واحدٍ معَ يوميّاتِ المتنبّي" (أدونيس، 2002).

ولإضْفاء المصْداقيّة على هذه المقدّمة يضيف أدونيس أنّه ينشر هذه الأوراق استجابة لوصيّة كافور، وأنّ عنوان كتاب السّواد من وضْعِهِ واختيارِهِ. وقدْ خصَّصَ أدونيس هذِه المساحةَ لكافور ليكملَ الدّائرة المحيطةَ بالمتنبّي بعدَ أوراقِ سيفِ الدّولَةِ، وأوراقِ خولَة التّي استعرضَها في الجزءِ الثّاني من الكتابِ، ليغلقَ الدّائرة برمادِ المتنبي.

ولئن كانت الدّراسة حول كافور إلاّ أن الباحثة تنأى بها عن المسيرة التّاريخية لكافور أو للمتنبّي الذي يحتلُ شطر كتاب السّواد، فتلك تلتمس في مظانّها، فقد أفاض فيها النقّاد حتى أسرفوا. كما أنّها لا تحاولُ أنْ تدرأ عن المتنبّي طمعًا ورغبة، أو تنفي عن كافور دهاءً ومكرًا وحسْنَ سياسَةٍ مكّنَتْهُ من عرش مصر، كما أنّها لا تقارنُ بين أميريْنِ مدَحَ المتنبّي أحدَهما معْجبًا طامعًا، ومدحَ ثانيهِما طامعًا حسْب، بل تكتفي بما يجلّي بعض العبارات في كتاب السّواد، ويعين عليها.

كافور في المتخيّل العربيّ

منذ أنْ رسمَ المتنبّي تلكَ الصّورةَ السّاخرة لكافور، ومنذ أنْ أوحى ابنُ جنّي، "سيّء الظّنّ بمدائح المتنبّي" (البرقوقي 1986)، إلى شاعِرِهِ ما أوحى، وجعل لكافوريّات المتنبّي باطنًا وظاهرًا، وجعلَها تحتملُ المَدْح والهَجْوَ، وتُقْرَأ من وجْهينِ وتلكَ الصّورةُ تلازمُ كافورًا، حتّى غدا البياضُ سوادًا، واستحالَتِ الشجاعَةُ جبنًا، والصّدق كذِبًا، والجود بخلًا، والوفاء غدرًا، والوعْد خُلْفًا وخسّة.

ويذهبُ نادر كاظم إلى أنْ ليسَ في الأدب العربيّ من جمعَ بين هاتين العلاقتيْن كما فعل المتنبّي في الكافوريّات، فإن هجا طابَقَ شِعْرُهُ المتَخَيَّلَ العربيّ، وإنْ مدحَ انحرفَ عن ذلكَ المتَخَيَّلِ وخالَفَه (كاظم، 2004). وهكذا أبقى المتنبّي كافورًا بينَ أنتَ ولَستَ على حدّ تعبير ابن رشيق (القيرواني، 1981)، فإن خاطبَهُ بأنتَ رفع كافورًا فوقَ قدْرِه، وإن بادرَه بلسْتَ حطَّ من شأْنِه، وردَّهُ إلى أصلِه.

ويسعى أدونيس في كتابِ السّوادِ إلى إعادةِ رسْم تلك الصورة التي جعلت من كافور مجرد عبدٍ آل إليهِ عرْشُ مصر مصادفةً، كما يحاولُ أنْ يمسحَ ما علا صورتَهُ من غبارِ المتنبّي، "فأدونيس الّذي يرفض النّظر إلى التّاريخ بعدّه معطى نهائيًا وناجزًا يتولّى قراءة كافور من خارج الرّؤية الثّنائيّة التّبسيطيّة التي تجعله ممثلًا للشّرّ المطلق مقابل الخير المطلق" (بزيع، 2003).

المدينة

يبدأُ كافور من البلاد والمدينة، من لازمة لا معهودةٍ ولا متوقّعة، من: بلادي بلادي إلى:

لا بلادي بلادي،

لا يدي في يدي (أدونيس، 2002)

ولليدِ في اللغة معنيانِ من حقيقةٍ ومجازٍ: القوّة والمُلْك، والاستسلام والانقياد، وقد تنقَّلَ كافور بينهما، فقد رُوِيَ أنّهُ "كان شديد اليد، ولا يكادُ أحدٌ يمدُّ قوسَه، فيعطي الفارسَ قوسَه، فإذا عجزَ ضحكَ واستخدمَه، وإنْ مدّه قطّب" (الذهبي، 1984). ولكنّه هنا يبدو ضعيفًا منقادًا، أما البلاد فقد أنكرتْه، وأمّا قوّة يدِه فقدْ زايلتْه. مطلع يوحي بالغربة والْعَجز، ويختصرُ البلادَ في مدينةٍ، يخاطبُها فيقولُ:

خبأتُ حزْنَكِ في جلديَ الأسودِ (أدونيس، 2002)

وسوادُ الثّياب، في الغالبِ، رمز للحزنِ، يمكنُ أنْ يُخلَعَ بعدَ حينٍ، غيرَ أنَّ حزْنَ المدينةِ سرمديّ صار فيه جلدُ كافور رمزًا ودلالةً عليه، وهذا على خلافِ قولِ المتنبّي:

إنّما الجلدُ ملبسٌ (العكبري، د.ت)

أمّا المدينةُ فشحم، مدينة متورّمة، مثقلَة، متخمة، هي شمس، ولكنْ لأوجاع كافور المتعاقبةِ عليْه، وهو على النّقيض منها هيكل من عظام، أخذَ منهُ الكِبَرُ، وأورثَهُ الوجعُ والْقلق هرَما وهو ما زال في طفولتِه. ولعلّهُ رأى في المدينةِ ومنها ما جعلهُ يعيد صياغةَ سؤالِ المتنبّي:

وماذا بمصرٍ من المضحِكاتِ ولكنّه ضَحِكٌ كالْبُكا (العكبري، د.ت)؟

ولسانُ حالِهِ يقولُ: وكم ذا بمدينتي من المبكياتِ!

وهنا تعودُ الذّاكرةُ بكافور إلى البداياتِ في سلسلةٍ من التساؤلاتِ الحائرة يوجّهها إلى جسمِهِ المتشوّه، ولئنْ كانَ الإيقاع ألجأ أدونيس إلى تلك الصّفة، وجعلَهُ يعْدلُ عن المشوّه فقدْ ناسبَتِ الكلمة مكانَها، ورفَعَت درجة المبالغةِ في الدلالةِ على التّشوّه. يستعيدُ كافور ذكْرياتِ وصولِه إلى مصرَ في صورة ظلالٍ مبهمة، لا يعلمُ منْ أين جاءَ، ولا يدري كيفَ اشتراهُ تاجرُ زيتٍ، ولا يعرفُ كيفَ صارَ إلى ابن وهْب، ولا يعي لم أعتقهُ إخشيد مصرَ، واصطفاهُ على سواهُ، وحماه (الذهبي، 1984). يعزو كلّ ذلك لحكمة الغيبِ، أو المصادفة، وينتقلُ إلى حالِهِ مع سيّده ومالِكِه، حال السّيّد والعبْد، ويذكرُ أنَّ عينَ سيّدِه كانتْ عنهُ راضية، صحيح أنّه عبد لكنَّ أخلاقَه أخلاق ملِك، نعم هو وضيعُ المكانةِ ولكنّه للمفارَقَة لا يليقُ بهِ غير قصْرٍ! رأى فيهِ سيّدُهُ ومالكُهُ ما لم يرَ الآخرونَ فأنصفَهُ

وقدّرَه. ولعلَّ أدونيس في ذكريات وصول كافور إلى مصر نظرَ إلى قصّة نبيّ اللّه يوسف ﷺ ففي طفولةِ كلٍّ منهما بعض تشابُهٍ وكبيرُ اختلاف، ومثالُ التّشابُهِ أنّ كلاّ منهما بيع في مصرَ، ووصل إلى من أكرَمَ مثْواه، كمّا أنَّ كلاّ منهما قد صار إليه الأمر في مصر، وأمّا دليلُ الاختلافِ فجسد كافور المتشوّه مقابلَ حسْنِ يوسفَ وجمالِه.

وتعودُ ذاكرةُ كافور إلى المدينة منْ جديد فإذا هي: "منفوخةٌ بأباطيلها" (أدونيس، 2002)، وسواهُ من عبيد المدينةِ جياع، شُغِلوا بقوتهِم فلم يرفعوا رؤوسَهُم، إن نظروا إلى السّماء ارتدَّ طرْفُهُم حسيرًا، فكسرةُ خبزٍ عند جوعِهم أجملُ في عيونهم من كوكب!

يأتي المقطع التّالي قصيرا، ثلاث كلمات حسْب، مقطعٌ يكادُ يكونُ جملَةَ اعتراضٍ بين حال المدينة على أرض الواقِع، وحلمِ كافور في مناماتِه: الطبيعةُ _ أمّيَ، ضدّي. (أدونيس، 2002) ويستعينُ أدونيس هنا بعلامة التّرقيم لإيصال المعنى، الطبيعةُ أمّه، فهل قصدَ بها الأرض التي أعطتْهُ لونَها؟ أم أمّهُ التي ولدتْهُ وأعطتْهُ لونه الأسْود؟ في الحالتيْنِ هما ضدّه، ولئنْ كان من غير المعهودِ أن تكون الأم ضدّ، إلاّ أنّها كذلك هنا.

الأحلام

أسلم كافور نفسَه للأحلامِ في المقاطع التّاليَة، أحلام صحوٍ ومنام، أحلام حلوة يستخدمُ للتعبيرِ عنها كلماتٍ ذات دلالة واضحة عليها: قطر، ورحيق. وكانَ الحلم الأعذب الأغرب حينَ شاهدَ نفسَهُ نجمًا "يتلألأ بينَ النجومْ" (أدونيس، 2002). ولكنْ هل من حقّ عبد أسود، زنجيّ أنْ يحلمَ؟ ويدافعُ كافور عن حقّهِ ذاكَ بأنّهُ عاشَ زنجيَّتَهُ كريمًا ممّا أعطاهُ الحقَّ في الحُلُم فأشرَعَ أحلامَهُ، وامتطى شهَواتِه، وظلَّ يتحيّنُ ريحًا مواتِيَةً لتصدُقَ تلكَ الأحلامُ وتتحقّق. ولكنَّ أحلامَهُ العذْبَةَ كانتْ ترتدُّ عليْهِ أحيانًا فتنقلُ بهِ بينَ سيفٍ ونجمة، فإمّا أن تتحقّق الأحلامُ أو يموتَ دونها. وتضطربُ اللّغة حينَ تضطربُ الأحلامُ فلم يعدِ السّيْف يتأرجحُ في العنُقِ، ولا النجمةُ في اليدِ، بل غدا للسيْفِ عنقٌ، وللنّجمةِ يدٌ، وهوَ بينهما في اضطرابٍ وقلق:

أتأَرجحُ في عنْقِ سيفٍ، وطوْرًا
في يَدَيْ نَجْمَةٍ (أدونيس، 2002)

ومن أحلامِهِ فِراش على شكلِ حوضٍ، ووسادة على صورة نهد، حلم يداري بهِ حياةً صعبة، ومعيشةً ضنكا لعبدٍ خصيّ، إن وردَ الماء ليشربَ فكأنّما يشربُ: "من جوفِ غول" (أدونيس، 2002)، في إشارةٍ إلى عطشٍ أو ظمأ دائمٍ لا يكاد يرتوي، بل من المستحيل أن يرتوي، أليسَ الغولُ من مستحيلاتِ العربِ؟!

وتطلُّ لعنةُ السّوادِ لتطاردَ تلكَ الأحلام، وتقابلَ وجْهَ الضّوءِ الذي يتبدّى لهُ في بعض الأحيان، ويرضى أنْ يكونَ سوادًا لأهدابِ ذلك الوجه. فلا فرقَ عندَهُ بينَ أبيضَ وأسود، فهو يؤمن أنّ الطينَةَ واحدة، والحقائق في عرْفِه لا تقاسُ بالطينةِ أو العرْق، فتلك خرافة بائدة (أدونيس، 2002).

تتنازعُه الأحلامُ ولا غايَةَ ولا هدف، كأنّما هو "في مركبٍ يتخبّطُ في لجّةٍ" (أدونيس، 2002)، فلا منارةَ تهديه، ولا شاطئَ يأوي إليه، يرى موجًا، وغيمًا، ومرضًا في الأفق! رياحٌ وحجر نرْد، والنّرد هنا إشارة إلى المصادفة أو الحظّ، فهل هذهِ علامةُ التغيير؟

القصر/ العرش

في القصرِ بطانة، بعضُهم لبعضٍ قريب وخليل، وكافور وحيدٌ غريب، تتجاذبُه متع جسد، ولذات فكرٍ، وأطياف أحلام، يخرج منَ تيهٍ ليدخلَ في تيهٍ جديدٍ، فقد هبّت رياحُ التّغييرِ على القصر، وانْهارَ العرشُ، والفرصَةُ إليه سانحة، والرّيحُ مواتِيَة، ولكن ما بالُهُ يقفُ حائرًا تتنازَعُه الأسئلة:

هلْ آخذُ العرشَ منْ أوّلِ الخيْطِ
بالبأسِ والعقْلِ؟ أَمْ أترُكَ المسألَهْ
مثلما ألِفَ النّاسُ تاريخَهُمْ
حيلَةً مرَّةً
مرَّةً مَقْتَلَهْ (أدونيس، 2002)؟

في إشارةٍ إلى أنَّ المُلْكَ غالِبا ما يُؤْخَذُ بالمؤامراتِ، والكيْدِ، والدّسائس، فالطامعونَ بالملكِ حولَهُ كُثُر، والأرضُ منْ تحتَ سدّة الحكمِ مستنقَع (أدونيس، 2002).

العدلُ أساسُ المُلْكِ

في المقاطعِ التّاليةِ من الأوراقِ يوضّحُ كافورُ سياسَةَ ملْكِهِ الّتي تتوافَقُ معَ ما جاءَ في وصْفِهِ في كتُبِ التّاريخِ، فقد جاءَ في سِيَرِ الأعلام أنّ كافورَ كانَ مَهيبًا، سائسًا، حليمًا، جوادًا، وقوراً، لا يشْبهُ عقْلُه عقولَ الْخُدّام، وكان ملازِمًا لمصالِحِ الرّعيّة، وكان فيهِ حِلْمٌ

زائد، وكفّ عن الدّماءِ، وجودَة تدبير (الذهبي، 1984).

وقدْ وافقتِ الصورَةُ التّاريخيّة الصورَةَ الشّعريّة في المذكرات، فقد كانَ لكافور شِرْعَتُه وقانونُه ومنهاجُه، ولنْ يرضى أنْ يمرَّ برَجِلِهِ وخيْلِهِ على جثثِ الآخرينَ حتّى لو كانوا أعداءه، بل سيجعلُ بينهُ وبينهمْ: الشَّرْع، والفِكْر، والميراث، وسيردُّ للشّرعِ حقّه، وللفِكْرِ حريّتَه، وللميراثِ أمانَتَه. سيعيدُ للعرْشِ معناهُ، فلن يقبَلَ أنْ يقالَ إنّهُ قبِلَ عرشًا أتاهُ بالظّنّة، والرّشوة، وسيكونُ دليلُهُ وهاديهِ العدلُ والحقّ لا فرقَ بينَ قريبٍ وبعيد، ولا خوفَ، ولا قمعَ، ولا عزلَ، ولا حرمانَ، ولا قتْل. فإن قيلَ عنهُ إنّه ليس ممثّلًا لشعبِه؛ لاختلاف أصوله، كانتْ حجّتُه أنّه يعرفُ أوجاع شعبِه وأسرارَه. ثمّ وجّه وجهَه شطرَ العرشِ، وأسْلمَ نفسَهُ لمصرَ، وفوّضَ أمرَهُ لأقاليمِها (أدونيس، 2002).

في المقاطع اللاّحقة يدفعُ أدونيس "اللغة إلى نهاياتها، ويجذب خيط البلاغة إلى أقصاه، ويقف على التخوم الملغزة" (بزيع، 2003):

ما الّذي يخسرُ النّيلُ، إنْ قُطِفَتْ زَهرَةٌ
بينَ أحْضانِهِ؟
ضحكَ المدُّ والجزرُ فيهِ،
ومضى يتسقَّطُ أخبارَ أزهارِهِ (أدونيس، 2002)
ومنْ أجلِ النّيلِ، نزفَ الأفُق، وانصهرَ الحبّ، ولكنْ:
لا دربَ إلاّ الصّعودْ
ما تبقّى فتاتٌ لكيْ يستمرَّ الوجودْ (أدونيس، 2002)

ويلتقي في ذلك الوجود فقراء، وأغنياء، وفقهاء، ويتقدّمونَ في شكّ نحو عدالَة لن يصلوا إليها حتّى: يتدفّق نهرُ المجزَّةِ في جوفِ حوت (أدونيس، 2002)، وأنّى يكونُ ذلك!! فمصرُ الآن جائعة، لمْ تعرفِ التّخمةَ إلاّ منْ ركوع!

تحقّقَ الحلُم المستحيل، وآلَ إلى كافورَ عرشُ مصْرَ، فتهيّأَ للاحتفالِ، وأعدَّ للحفلِ أجملَ ما عرفَتْ مصرُ من الغناءِ، متناسيًا أعداء العرْشِ، وللدّهشَةِ، مستأنسًا بالّذين يحسدونَهُ على مكانتِهِ، ويرى مصرَ كما لم يرها من قبل غريبَة، فيتساءلُ مستنكرًا:

أهذهِ مصرُ؟ برْجٌ يُقامُ على الكلماتِ،
ومشْنقَة كيْ تسوسَ الشَّقاءْ؟
ما الّذي فعَلَتْهُ
أرضُ مصْرَ لمحراثِ تلكَ السَّماءْ (أدونيس، 2002)

السّياسة

في الأجزاءِ الآتية من الأوراقِ يسِرُّ كافور برأيِهِ في السّياسة، يراها غبارًا يتسلّلُ إلى القصرِ دبقًا، خانقًا، يضيقُ بِهِ ويتمنّى لو أوتيَ القدْرَةَ على أن يغسلَ الفضاءَ منهُ. السياسَةُ ضدّ، ونقيضُ، وخلافُ، من يتعاطاها عليهِ أن يتخلّى عن ثلاث: كرامتُهُ، وصدْقُهُ، وكبرياؤه، ويتحلّى بثلاث: ذلّ، وكذب، ووضاعة. السياسة في عُرْفِهِ وفي قاموسِ كلماتِهِ تتلخّصُ في كلمتيْن اثنتيْن: فنُّ البغاء (أدونيس، 2002)!

وتورِثُهُ تلكَ الحقيقَةُ مرارة، وتهبُّ عليهِ معها أعاصيرَ غثيان، ولكنهُ لا يملكُ سوى أنْ يقنَعَ بما في يديْهِ حتى لو كانَ هباءً. أمّا الشَّعْبُ فتلكَ حكاية أخرى، لُغْز آخر يورِثُهُ حيرَة كبْرى، ويتركُهُ سؤالًا عالقًا دونَ جواب:

ما الّذي يجعلُ الشَّعْبَ في الضيقِ،
وحشًا غريبًا يحبُّ الجريمة؟
أَلدّماءُ لهُ خمرَة، مرارًا
ومِرارًا تميمَهْ (أدونيس، 2002)

صفات

يقفُ كافورٌ في المقاطعِ التّاليَةِ معَ ذاتِهِ، ويبوحُ لنفسِهِ ببعضِ صفاتِهِ، ومنْها أنّهُ لم يشْعرْ يومًا بأنّه ضحيّة، بلْ إنّه يكرَهُ تمثيلَ دورِ الضّحيّة، من عاداتِهِ ألا يؤجّلَ عملَ يومِهِ إلى غد، وإنْ حاصرتْهُ الأسئلةُ عمّا لديه، وعمّا سيفعلُ اكتشفَ أنّهُ كغيْرِهِ سجين، يومُهُ كأمسِهِ الذاهبِ، وغدُهُ كيومِه الحاضِر، وسيظلُّ ذلك يتكرّرُ ما شاءتِ الإمارة، فالسّجنُ بستان العرش (أدونيس، 2002)، ويرى نفسَه الجذْر حينًا، والغبار حينًا آخرَ، فيه منَ الأولِ رسوخَه، وثباتَهُ، ولكنّه من ناحيَة أخرى غبار وهباء.

أمّا رفاقُه فقد نشأَ على حبّهِم في اللاّوعي منْهُ، مشَوا حفاةً معًا، تشاركوا الخبز، وتقاسموا الأرض، وعاشوا معًا التشرّدَ والبؤْسَ، ولكنَّه في لحظةِ الوعي يعود إلى وحدتِهِ، تلكَ الوحدة التي ألفها واعْتادَها؛ لأنّها طريقُهُ إلى فهْمِ الوجودِ، وكشْفِ أسرارِه، فالوحدة معراجُهُ بين السّماء والأرضِ (أدونيس،2002). ولكنّ المدينة تظلّ تقتحم وحدتَه وقد غدت محْضَ جسَدٍ يعّذّبه الأعداء، ويقتلونَه، ولا يخجلونَ من تأبينِهِ ميتًا، يحملون الخشخاشَ بيدٍ والتّرياق بالأخرى، ولم تسلَم منهم وجوه أحبّوها وعشقوها!

حياة الأمير

المقطعُ التّالي نوافذُ يفتحُها كافورُ على مشاهِدَ واقعيّة من المدينة التي يغشاها الحزنُ:

عابرونَ، سكارى، وقناديل سوداءُ صفراءُ. ليلٌ
آخرُ من جراحٍ وتمائمَ كيْ يُطْرَدَ الحزنُ عن وجْهِ مصرٍ
نجمةٌ تأخذُ النّيلَ منْ خصْرِهِ
ساهرٌ. لنْ أزورَ سريري، ولنْ أغلقَ النّافِذَهْ (أدونيس، 2002)

أمّا الحياةُ التي أُخبِرَ عنها فما زالت غائبَة، بل خيال، محضَ خيالٍ:

كثيرًا تخيَّلْتُها، انتنيَ سرًّا، ورافقْتُها
ودخلنا معًا دارَها،
دارَها الكاذِبَهْ (أدونيس، 2002)

ويبلُغُ كافورٌ بالبَوْحِ غايَتَهُ، فقد صارَ إلى حالٍ لمْ يكن يتوقّعُ أنْ يصِلَها، بلْ إنَّهُ في دهشَةٍ ممّا وصلَتْ إليهِ الحالُ، وسخْريَةُ الدّهرِ بلَغَتْ مداها، فلا الأمرُ في القصْرِ أمرُهُ، ولا المالُ مالُه، وهو لا يمكنُ أنْ يقاتِلَ منْ أجلِ المُلْكِ، ويسْفك الدّماء. الأمرُ والنّهْيُ الآن لحرّاسِه الذينَ نشروا حولَهُ العيونَ، وأحاطوهُ بالرّقباءِ، وسدّوا المسالِك إليهِ والدّروبَ، وخاضوا حروبَ شراب، ورفعوا راياتِ مجون، ومنهم يُسْتَجدى العَطْفُ وتُطْلَبُ الرّحمة (أدونيس، 2002).

هو الأميرُ العبْدُ أو العبدُ الأميرُ، ولا يكادُ يصدّقُ أنّ غيرَهُ من العبيدِ يقدّمونَ، بلْ يُجرّونَ إليهِ هدايا ليهديهم بدورِه إلى منْ يشاء، ولا يكادُ يتخيّل أنّه يتنقّلُ بجسدِهِ الّذي وصفه في بداياتِ الأوراقِ بالمتشوّه بين الحريمِ والإماء، وما ملكتِ اليمين، فكيفَ يصدّقُ أنّه باتَ الأمير؟!

شمسُ هذي الظّهيرَةِ مالتْ
رسمتْ حزْنَها على بابِ بيتي ومالتْ
كانتِ امرأةٌ قُرْبَهُ
تتعلّمُ سرَّ التّشبُّثِ بالأرضِ منْ عشْبَةٍ. غرابٌ
حامِلٌ حظَّهُ
والغبارُ يجرُّ على البابِ منديلَهُ (أدونيس، 2002)

وفي حين كانتِ امرأةٌ في المقطعِ السّابِق تتعلّم سرّ التشبّثِ بالأرضِ، كان يمشي وهوَ يتوقّعُ أن تتساقطَ السّماءُ عليهِ، يتوقّفُ ولا أمنيةَ سوى أنْ يلقي نفسَه فوقَ التّرابِ في ظلّ رمّانَة، ويتساءلُ:

تراها يدُ اللّيلِ، تلكَ
التي تدخُلُ الآنَ في جيبِ فلاّحةٍ؟ أتُراها السّماءُ تنام
على كتِفيْها؟
كوكبٌ يهبِطُ الآنَ عفوًا على سلّمِ الفضاءْ:
هو ذا شاردٌ في الحقولْ (أدونيس، 2002، 336)

كافور غارقٌ في البُكاء، فقد مسّت القلبَ منه شيخوخَة، والفاجِعَة كبيرَة: هو يخدمُ العرشَ، يخدمُ كرسيّه ولكن مَنْ يخدمُ الشّعبَ؟ من يخدم الجَمالَ؟ من يخدمُ الشّعرَ؟ صارَ العرشُ هو السّؤالُ (أدونيس، 2002).وعند ذلك الحدّ يسعى كافور إلى أنْ يخرجُ من ليلِ الكوابيس إلى نهارِ الأحلامِ، من قلقِ الأسئلةِ إلى سكينةِ الأجوبَة، ليجد سكينتَهُ في الجَمال، وهدأَتَهُ في الشّعرِ، ولكنْ مَنْ للشّعرِ، ومن للأمير العبْد الّذي تلاحقُهُ شبْهة اغتصاب عرشِ مصرَ؟ ويطلقُ لأحلامِهِ العنان: منْ للشّعر سوى المتنبّي، لكنْ أتراهُ يرضى أن يكونَ شاعرَهُ الّذي ينفي الظّنّة عن عرشِهِ؟

المتنبّي شاعرُ الأميرين

المتنبّي في عُرْفِ الباحثَةِ شِعْر يجلُّ عن وصْف، وشاعر يدقُّ عنه تعريفٌ عابِرٌ عجول، وهو في كتابِ أدونيس مرْكَزُهُ وهامِشُه، قدّمهُ أدونيس في الجزْءِ الأولِ من الكتاب، وأجرى على لسانِهِ:

أبَوايَ،

أخذا الأبجديَّةَ في راحةٍ، والقصيدَةَ في راحةٍ

وقالا:

سوفَ نقرأُ في ضوْءِ سِرّهِما أحمدا (أدونيس، 1995)

ومِن ذلك السّرّ، ومن بينِ الأبجديّة والقصيدة تشكّلَتْ شاعريّة المتنبّي. وتُشيرُ الباحثَةُ هنا إلى زمنيْن حكما حياةِ المتنبّي، وشكّلا تحوّلاتِهِ الشّعْريَّة إذا صحّ القوْل: أوّلهما زمن سيْفِ الدّولة أميرِ حلب سنةَ 337هـ، الّذي قالَ فيهِ المتنبّي:

وما لاقَني بلَدٌ بعدَكُمْ ولا اعتَضْتُ منْ ربِّ نُعْمايَ رب (العكبري، د.ت)!

وثانيهما زمنُ كافور الإخشيديّ سنةَ 346هـ، الّذي مدَحَهُ وهو عنْهُ راغِب، يشي بذلك مطلَعُ مِدْحَتِهِ الشّهير اليائس الخائب في قوْلِه:

كَفى بكَ داءً أنْ ترى الموْتَ شافِيا وحسْبُ المَنايا أنْ يكُنَّ أمانِيا (العكبري، د.ت)

وقد ظلّ المتنبّي بينَ الأميرَيْن حائرًا، متسائلًا، متردّدا، وكمْ أجادَ أدونيس في وصْفِ ذلكَ حينَ قالَ على لسانِ شاعِرِه:

مِنْ أيْنَ آخُذُ هذِهِ الدّنيا، ولؤْلؤُ عرشِها

طينٌ ومالِكُها غُبارُ؟

أتُرى حياتي نَشْوَةٌ طاشَتْ وطاشَ بها المسارُ (أدونيس، 2002)؟

وكمْ طابِق ذلكَ قولَ المتنبّي ووافقَه؛ إذ قال:

وما أنا غيرُ سَهْمٍ في هواءٍ يعودُ ولمْ يجِدْ فيهِ امتِساكا (العكبري، د.ت)!

وقدْ كان لكلٍّ من الأميريْن مكانُهُ من نفْسِ المتنبّي، على تفاوتِ ما بينَ المكانَتَيْنِ، يدلُّ على ذلكَ ما روى ابنُ جنّي من أنّهُ قرأ على المتنبّي قولَهُ:

أُغالِبُ فيكَ الشَّوْقَ والشّوْقُ أغلبُ وأعجبُ منْ ذا الْهَجْرِ والْوَصْلُ أعْجبُ (العكبري، د.ت)!

وقدْ عزَّ عليْهِ أنْ يكونَ ذلكَ في كافورٍ لا في سيْفِ الدّولةِ، فقالَ له المتنبّي: حَذَّرْناهُ وأنذَرْناهُ فما نفع، فهو الّذي أعطاني كافورًا (ابن خلكان، 1978).

قصَدَ المتنبّي كافورًا، ولكنَّ سيف الدّولةِ ظلَّ يحنُّ إلى شاعِرِهِ، يتسقّطُ أخبارَهُ، ويتأوّلُ أبياتَهُ حتّى في سِواه. فقدْ رُوِيَ أنَّهُ لمّا سمِعَ قولَ المتنبّي:

قواصِدَ كافورٍ توارِكَ غَيْرِهِ ومَنْ قصَدَ البَحْرَ اسْتَقَلَّ السّواقِيا (العكبري، د.ت)

قالَ: لهُ الويلُ، جعلني ساقِيَةً، وجعلَ الأسودَ بحرا!

وهكذا أتعبَ الشّاعرُ أميريْه، حتّى صدق في حالِه وحالِهما معه قوله:

أنامُ ملءَ جفوني عن شوارِدِها ويسْهرُ الخلقُ جرّاها ويختصمُ (العكبري، د.ت)

المتنبّي في عينِ كافور

صارَ عرشُ مصرَ إلى كافور إذنْ، فراحَ يبحثُ عن شاعِرِه، فشاعِرُ الأميرِ ضرورة في ذلك الزّمن، وقد وجدَ ضالّتَهُ في المتنبّي الرّاحلِ عن سيفِ الدّولةِ جريحَ كرامَةٍ وروح، وقدْ تساوى الأمراءُ بعْدَ أميرِهِ، وتساوتِ الأماكنُ بعدَ حلَب. لهذا أجابَ دعوَةَ كافور، فجاءَ مصرَ بينَ خوفٍ ورجاء، خوف خيبةٍ يبدو أنّهُ اعتادَها، ورجاء ولايَةٍ يطمعُ في أن ينالَها، ويرْوى أنَّهُ طلبَ منْ كافورَ صراحَةً أنْ يولّيَه ولايَةً في مصرَ أوِ الشّامَ، فوعدَهُ كافور ثمّ ماطلَه وأَخْلَفَه؛ لِما رأى منْ تعاليهِ منْ ناحِيَة، ومخافَةَ أنْ يطمعَ المتنبّي في مُلْكِ مصْرَ، ويدّعي الممْلكة بعدَهُ منْ ناحيَةٍ أخرى (العكبري، د.ت، المقدمة ب).

ذلكَ ما قالَ رواةُ الأدبِ أو التّاريخِ في كافور والمتنبّي، وأمّا المسكوتُ عنْهُ فتستعينُ عليْه الباحثَةُ بما قال كافور أو أدونيس في كتابِ السّواد. فهل كانَ كافور يتوقّعُ منْ المتنبّي أنْ يُنْزِلَهُ منزلةَ سيفِ الدّولةِ؟ هلْ ظنَّ أنْ يسكتَ المتنبّي عن مماطلَتِهِ له في أنْ ينيطَ بِهِ ضيعَةً أو ولايَةً؟ ألم يخْشَ كافور ما قرَّ في المتخيَّلِ العربيّ منْ صورِ السّودِ والسّوادِ في ذلكَ الوَقْت؟

يكتُبُ أدونيس روايَةً أخرى موازِيَةً لتلكَ الرّوايَة التّاريخية، يبدو في مطلعِها كافورٌ الأميرُ أشدّ حاجةً إلى المتنبّي الشّاعِرِ منْ حاجةِ المتنبّي الطّامِحِ الطّامِعِ إليْه:

كُنْتُ أحلُمُ أنْ يأخُذَ المتنبّي
بيَدَيْ أسودِ
يتبوّأُ عرشًا
بنبالَةِ أفْعالِهِ وأفكارِهِ
لا بإرْثٍ، ولا باغْتصابٍ (أدونيس، 2002)

ومن الملاحَظِ أنّ أدونيس هنا يرفَعُ الشّاعِرَ على الأميرِ درَجَةً، ويجعلُ الشّعرَ يعلو بالأميرِ حتى لو كانَ صاحِبُ الْعرْشِ عبدًا أسْود، صارَ إليهِ العرشُ لنُبْلِهِ، وأفكارِهِ، ولمْ يَرِثْهُ مصادَفَةً، ولمْ يأْخُذْهُ غلابًا. كانَ كافور يأملُ أنْ يرى المتنبّي ذلكَ ويقدّرَهُ علّ نفْسَ كافورَ تطمئنُّ إلى جدارَتِهِ بعرْشٍ حسّادُهُ عليْه كثُر، والمشكّكونَ بأحقّيّتِهِ به أكثر، فقصيدة من المتنبّي كفيلة بردّ كلّ مشكّك، وردعِ كلّ حاسد. كانَ كافور يرجو أن ينظُرَ المتنبّي إلى مكارمِ أخلاقِهِ، وجميلِ خصالِهِ، ونبيلِ أفعالِه علَّ قولَهُ يصْدُقُ فيه:

مِنْ خِصالٍ إذا نظَرْتُ إليها نَظَمَتْ لي غرائِبَ المنثورِ (العكبري، د.ت)

كان كافور يأمُلُ أن يتصالَحَ المتنبّي مع دنياهُ، وينسى تباريحَها، كانَ يرجو أن يكونَ الأميرَ الّذي يغفِرُ معهُ المتنبّي ذنوبَ أيّامِه الّتي أشارَ إليها في قولِهِ:

أزالتْ بكَ الأيّامُ عَتْبي كأنّما بنوها لها ذنبٌ، وأنتَ لها عُذْرُ (العكبري، د.ت)

كانَ يحلُمُ أنْ يبيّضَ شعْرُ المتنبّي وجْهَهُ، ويُنسيه سوادَهُ:

أنْ يُجرِيَ الشّعْرَ أبْيَضَ
في لُجَّةِ السّوادْ (أدونيس، 2002)

ولكنْ ماذا عن حلُمِ المتنبّي؟ هلْ كان يمكنُ لكافور أنْ يحقّقَه؟ هل كانَ يستطيع أن يروّضَ ذلك الرّوحَ العصيَّ فيه؟ كانَ كافورُ يعرِفُ طبيعَةَ المتنبّي الجامِحَة، وروحَهُ القلِقَة، وطموحَهُ الّذي لا يُحَدّ، شاعِرٌ أعطاهُ الزمانُ فما قبلَ عطاءَه، وأرادَ لهُ فأراد أنْ يتخيرَ (العكبري، د.ت)! لهذا ماطلَهُ كافور في الولايَة الّتي وعد، لمْ يكنْ يريدُ أنْ تُدَجّنَ الولايَةُ شموخَ الشاعرِ فيهِ، أرادَ لهُ أنْ يظلَّ روحًا عصِيّةً، طليقةً، شاردَة، أرادَهُ كما رآه:

لمْ أشَأْ أنْ أدجّنَ ما في حناياهُ منْ شامخٍ عصِيٍّ
شئْتُ أنْ يستمرَّ كما رسَمَتْهُ رؤايَ:
الشَّريدَ، النّذيرَ، النّقِيَّ (أدونيس، 2002)

ويسْكُتُ كافور هنا عمّا قالَ فيهِ المتنبّي، فهلْ كانَ سكوتُهُ خجَلًا ممّا قيلَ؟ أمْ عزَّ عليْهِ أنْ يعيدَ على مَسْمَعَيْ نَفْسِهِ أبياتَ المتنبّي في هجائِهِ؟! تراهُ اطْمَأنَّ إلى أنَّ ذلكَ الهجاء ما كانَ لِيَكونَ لو أنّهُ تمَّ للمتنبّي ما أراد؟!

أمّا أدونيس فقدْ قالَ:

نقلوا عنْهُ ما قالَهُ فيَّ، حالٌ
أتراها،
مثّلَتْ حالَهُ (أدونيس، 2002)؟

وجعلَ كافورًا في شكٍّ من صدْقِ المتنبّي فيما قالَ فيه، تركَهُ على حدود الأملِ والرّجاءِ. وأمّا الباحثَةُ فيغْلُبُ على ظنّها أنَّ كافورًا اكتفى من المتنبّي بما نالَهُ منهُ من أبياتِ مدحٍ غدا بعضُها أشهرَ من شاهِدٍ شعْريّ في كتب النّحاة، فكيفَ لا يغضُّ طرْفَهُ عن الهِجاءِ الّذي برّره بطمع المتنبي في الولايَة التي لم يُعْطَها، فذمَّ كافورًا بسببها، وغادرَهُ ساخطًا عليْه.

ولكنْ ماذا عنْ رأيِ كافورٍ في المتنبّي؟ ما الأثرُ الّذي تركَتْهُ هجائيّاتُ المتنبّي في نفْسِه؟ هلْ نجحتْ في زحزحة المتنبّي عن مكانتِهِ، وغيّرتْ نظْرَةَ كافور إلَيْهِ؟ أما أدونيس فيرى أنَّ ذلك لمْ يغيّر منْ نظرتِهِ، لهذا لم يُعِرْ ما قال المتنبّي في هجْوِهِ انتباها، ولم يعْطِهِ أُذنا صاغِيَة، وإذا ما سُئلَ عن المتنبّي فسَوْفَ يفيهِ حقَّه، ولن يقولَ فيه إلاّ صِدْقًا:

شاعِرٌ لا أجادلُ في شِعْرِهِ
هوَ إيقاعُ هذا الزّمانِ ومعراجُهُ
إلى سِرِّهِ (أدونيس، 2002)

وكم يبدو ذلك الحقُّ قريبًا مشابِهًا لما قالَ المتنبّي عن نفسِه:

وما الدّهْرُ إلا منْ رواةِ قلائدي إذا قلتُ شعرًا أصبَحَ الدّهرُ مُنْشِدا (البرقوقي، 1986)

ولئنْ كانَ المتنبّي وصفَ نفسَهُ بالصّائحِ المحْكِيّ، وجعلَ سواهُ من الشّعراءِ الصّدى، فقد جعَلَهُ كافور القوسَ وجعلَ الشعراءَ جميعًا يمرّونَ من تَحْتِهِ (أدونيس، 2002)!

التقيا، شاعرٌ وأمير للمفارقة عبْد، ولكنّ الأوجاعَ متشابِهَة، ولكلّ سرّ، مضى المتنبّي إلى سرّهِ خائبًا، وعادَ كافور إلى سرّهِ غريبًا (أدونيس، 2002، 338)، عاد إلى وحدتِهِ يناجي نفسَه، ويتساءل:

ربّما أخطأَ المتنبّي
في قراءةِ لوني وقراءةِ ما بيننا (أدونيس، 2002)

ويعتذرُ من جديدٍ عن وعدِهِ المُرْجأ للمتنبّي بالولايَة، فلم يكن يريدُ أنْ يصبحَ سجينَها، أرادَ لهُ أنْ يبقى وفيًّا لمراراتِه، أراد لهُ أنْ يظلَّ:

يطِلّ على الأرضِ منْ شرفَةِ الأنبياءْ
كوكبًا ملْكُهُ الفضاءْ (أدونيس، 2002)

فما كانَ كافور لينسى الإشارة إلى ما جرى تداولُهُ منْ أمرِ ادّعاء المتنبّي النّبوّة التي كانتْ وسيلتُهُ في الرّواية التّاريخيّة للتّملّصِ من وعْدِهِ للمتنبّي بالولايَة، فمنْ يدّعي النّبوّة في عرْفِهِ لنْ يتردّدَ في ادّعاء ملكِ مصرَ بعدَ أميرِها، ولكنّهُ هنا في الرّوايةِ الشّعريّة يُقِرّ لَهُ بنبوءَةٍ أخرى هي نبوّةُ الشّعرِ، ومنْ شرْفتِهِ جعله يطِلُّ على ما يشاء! لكنّهُ للمفارَقَةِ لم يرَ كافورًا، في الوقتِ الّذي لمْ يرَ كافور سِواه، حتى تاهَ بِهِما الطريقُ، وضلّ كلٌّ منهما عن صاحِبِه:

هوَ لمْ يرني، مرَّةً
وأنا لمْ أشاهِدْ
بينَ نفسي وبيني سِواهْ
كيفَ خانتْ طريقي إليْهِ خُطاهْ (أدونيس، 2002)؟

ثمّ كانَ فراق، وكانَ حنين نسجَهُ كافور جدائلَ، حنين خانَهُ حتّى أنساهُ ما دار بينهما في اللّقاءِ الأخير، لكنّ ما لا ينساهُ أنّ كليهما غادرَ الآخرَ خائبًا، مثخَنًا بالْجراحِ!

وكان يمكنُ أن تنتهي الأوراقُ عند هذا الحدّ، لكنّ أدونيس يردّ كافورًا إلى هواجِسِهِ، وأحلامِهِ، ومخاوِفِه، حتّى اختلطتِ الضّمائرُ على القارئ:

أيّها الصّديقُ العدوُّ، البعيدُ القريبُ، المقنّعُ _ كلاّ
لا تقُلْ أيَّ شيءٍ
لمْ أُرِدْ أنْ تبوحَ، وأوثِرُ ألاّ يكونَ الخطابُ طريقًا
إليَّ، تعوّدْتُ أنْ أقرأَ الصَّمْت (أدونيس، 2002)

لعلَّ كافورا يخاطبُ نفسَهُ هنا، ولعلّهُ يخاطبُ صديقًا آخرَ يلومُهُ على البَوْحِ في هذِهِ الأوراقِ؛ لأنّ:

في الصّمتِ ما يتخطّى الخِطابْ
لا يقولُ الكلامُ عنِ النّورِ، نورِ الألوهةِ
غيرَ الحجابْ (أدونيس، 2002)

اختارَ كافور التغيير، غيّر منهُ الصوتَ، والقلْبَ، غيّرَ عهودَ صداقاتِه، وعذاباتِ حبّه، ولكنّه لم يستطع تغييرَ وجهِه الّذي عصاهُ، وإنْ ظلّ يحنو عليه، ظلّ كما أراد لهُ أنْ يكون. وكانَ آخر البوْحِ غموض، وعتمة، وحجب، والخاتمةُ سؤال:

كيفَ السبيلُ لتعلُوَ مصْر (أدونيس، 2002)؟

أوراقُ كافور أفكارٌ مبعثرة، حكايَة متقطّعَة في كتابِ السّواد، تنتقلُ بالقارئِ بينَ حجبٍ وكشْف، وعتمةٍ وضوْء، ممّا يجعلُ الوصولَ إلى حقيقتِها ضربًا من الخيال، والإحاطةَ بالحالةِ الوجدانيّةِ فيها مَحْضَ وهمٍ. ويعودُ ذلكَ إلى لغة أدونيس الموغلة في الإبهامِ في بعْضِ الأحيانِ، والتّداخل الكبير بين شخصيّات أدونيس، وكافور، والمتنبّي، ناهيكَ عن طبيعة النّصّ المراوِغَة، "وما يترسّبُ في أعماقِهِ من عوالِمَ مغيّبَة مضمَرَة" (دبابي، 2011).

خاتمة

اتكأ أدونيس على المتنبّي في ثلاثِيّةِ: الكتاب: أمس المكان الآن، وقدّم سيرَة شاعِر، وتاريخ أمّة. وما كانَ لصورَةِ المتنبّي في الكتابِ أنْ تكتملَ ملامحُها إلاّ بالكَشْفِ عنْ تلك المرحلة المهمّة منْ إبداعِه حينَ اختارَ الرّحيلَ إلى مصرَ قاصدًا كافورا، وقد جاءَ

ذلكَ الجزء من الكتابِ تحتَ عنوان: كتاب السّواد، الّذي تكتمل بهِ الدّائرةُ حولَ المتنبّي بعد اعترافاتِ خولة، وبَوْح سيْف الدّولة في الجزءِ الثاني من الثّلاثيّة.

في كتاب السّواد كشَفَ كافور عن هواجِسِهِ، وأطلقَ العنانَ لمشاعِرِهِ، وأظهرَ عذاباتِهِ، وعادَ إلى أهمّ الأحداثِ التّي رسمتْ ملامِحَ حياتِه: عبدٌ مشوّه صارَ إلى إخشيد مصرَ الّذي اصطفاهُ وأعتَقَه، المدينةُ والعبيد الجِياع، وصولُهُ إلى عرشِ مصْرَ، شِرْعَتُهُ العادِلَة، إحساسُه بأوجاعِ شعْبِه، خوفُهُ من بطانتِه وحراسِه، صراعُهُ الدّاخليّ بين العبدِ فيهِ والأمير، حبّهُ للشّعر، وحلمُه أن يأخذَ المتنبّي بيدِه، وينْسيهِ سوادَه، وتعليلُهُ مماطلَتَهُ المتنبّي، وتراجُعَه عن وعدِهِ له بولايَة؛ حتّى لا يدجّنَ الشّامِخَ العصّيّ فيه، ليظلَّ كوكبَ شعرٍ عَلِيّ مُلْكُهُ الفضاء.

قائمة المصادر والمراجع

ابن خلّكان، أ. (1978) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان، د. ط تحقيق: إحسان عبّاس، مجلّد1، بيروت: دار صادر، ص122–123

أدونيس، ع. (1995) الكتاب: أمس المكان الآن، ط1 ج1، بيروت: دار الساقي، ص12

أدونيس، ع. (2002) الكتاب: أمس المكان الآن، ط1 ج3، بيروت: دار الساقي، ص321–341

أدونيس، ع. (1978) زمن الشعر، (ط2)، بيروت: دار العودة، الصفحات: 168/264/317

أدونيس، ع. (1979) مقدمة للشعر العربي، (ط1)، بيروت: دار العودة، ص117

الأسطة، ع. (2009) محمود درويش والمتنبي، تم الاسترجاع من الرابط
-https://www.diwanalarab.com/%D9%85%D8%AD%D9%85%D9%88%D8%AF
17056-D8%AF%D8%B1%D9%88%D9%8A%D8%B4%

باشلار، غ. (1991) شاعريّة أحلام اليقظة، ط1، ترجمة: جورج سعد، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات، ص14

البرقوقي، ع. (1986) شرح ديوان المتنبي، د.ط ج4، بيروت: دار الكتاب العربي، ص290–427

دبابي، م. (2011)إبداعيّة الخطاب النّقدي عند رولان بارت، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة فرحات، عباس سطيف، الجزائر ص37

بزيع، ش. (2003) الجزء الثالث من الكتاب: زواج الشعر والفلك والتاريخ والمسرح، تمّ الاسترجاع من الرابط
http://www.maaber.org/eleventh_issue/booksj2.htm

بيضون، ع. (1998) النظم والشعر، التاريخ والرؤيا، العابر وغير المرئي، الرائد والأجيال الجديدة في الكتاب، تم الاسترجاع من الرابط
http://www.jehat.com/jehaat/adonees/page4b.html

درويش، م. (2001) لماذا تركت الحصان وحيدا، ط3 بيروت: رياض الريس للكتب والنشر، ص7.

الذهبي، ش. (1984)سِيَر أعلام النّبلاء، ط1 ج16، تحقيق: أكرم البوشي، بيروت: مؤسسة الرسالة، ص191–102

زين الدّين، ث. (1999)أبو الطيّب المتنبي في الشّعر العربي المعاصر، د.ط سوريا: منشورات اتّحاد الكتاب العرب، ص14 وما بعدها

ضاهر، ع. (2000) الشعر والوجود: دراسة فلسفيّة في شعر أدونيس، ط1 دمشق: دار المدى للثقافة، ص146

العكبري، أ. (د.ت): شرح ديوان المتنبي، د.ط ج1، ضبطه وصححه: مصطفى السّقا، إبراهيم الإبياري، عبد الحفيظ شلبي، المقدمة، ب، بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر، الصفحات:
163/159/267/294/176/396/281/98/43/35 والصفحة ب من المقدمة

القيروانيّ، أ. (1981) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ط5 حققه: محمد محيي الدين عبد الحميد، سوريا: دار الجيل، ص123

كاظم، ن. (2004) تمثيلات الآخر: صورة السّود في المتخيّل العربيّ الوسيط، ط1 بيروت: المؤسسة العربية للدراسات، ص240

References

Adonis,P (1978) The Time of Poetry, Beirut: Dar Al-Awda, Pages: 317/264/168.

Adonis, P. (1979) An introduction to Arabic poetry, (1st edition), Beirut: Dar Al-Awda, p. 117.

Adonis, P. (1995) The Book: Yesterday Place Now, 1st Edition, Part 1, Beirut: Dar Al Saqi, p. 12.

Adonis, P (2002) The Book: Yesterday Place Now, 1st Edition, Part 3, Beirut: Dar Al-Saqi, pp. 321-341.

Akbari,A. (D.T): Explanation of Diwan Al-Mutanabbi, P 1,controled and corrected by: Mustafa Al-Saqa, Ibrahim Al-Abyari, Abdul Hafeez Shalabi, Introduction, B, Beirut: Dar Al-Maarefa for Printing and Publishing, Pages:

35/43/98/281/396/176/294/267/159/163 and page B is from the introduction.

Al-Barquqi,P. (1986) Explanation of Diwan Al-Mutanabbi, Part 4, Beirut: The Arab Book House, pp. 290-427.

Bachelard, G. (1991) The Poetics of Daydreams, 1st edition translation: George Saad, Beirut: University Institute for Studies, p. 14.

Beydoun,P. (1998) Systems and Poetry, History and Vision, Transient and Unseen, Pioneer and New Generations in the Book, retrieved from the link: www.jehat.com/jehaat/adonees/page4b.html

Bzeia,SH. (2003) Third part of the book: Marriage of Poetry, Astronomy, History and Theater, retrieved from the link: http://www.maaber.org/eleventh_issue/booksj2.htm

Dababi, M. (2011) The Creativity of Critical Discourse by Roland Barth, Unpublished Master Thesis, University of Farhat, Abbas Setif, Algeria, p. 37.

Dahir,P. (2000) Poetry and Existence: A Philosophical Study in Adonis Poetry, Damascus: Dar Al-Mada for Culture, p. 146.

Darwish, M. (2001) Why I Left The Horse Alone, 3rd floor Beirut: Riyad Al-Rayes for Books and Publishing, p. 7.

Golden, sh. (1984) Biography of the Nobles, 1st edition, 16th Edition, Investigation: Akram AlBoushi, Beirut: Al-Risala Foundation, pp. 1971-102.

Ibn Khallikan,A. (1978) Death of notables and news of the children of time, d. I investigation: Ihsan Abbas, volume 1, Beirut: Dar Sader, pp. 123-123.

Kairouan,A. (1981) The mayor of the pros and cons of poetry, p. 5, achieved by: Muhammad Muhyiddin Abdul Hamid, Syria: Dar Al-Jeel, p. 123.

Kazem,N. (2004) Representations of the Other: The image of blacks in the Arab mediator, I 1 Beirut: Arab Institute for Studies, p. 240.

Osta, P.(2009)Mahmoud Darwish and Al-Mutanabi, retrieved from the link: https://www.diwanalarab.com/%D9%85%D8%AD%D9%85%D9%88%D8%AF-%D8%AF%D8%B1%D9%88%D9%8A%D8%B4-17056

Zain Al-Din,W. (1999) Abu al-Tayyib al-Mutanabby in Contemporary Arab Poetry, Syria: Publications of the Union of Arab Writers, pp. 14onwards.